الأمية التربوية وأثرها في اساليب التحفيز والعقاب على الاطفال

العقاب فلسفة ومفهوم وأهداف ، فإذا كان الاب والأم غير مدركين لتلك الفلسفة والمفهوم فإن العقاب يصبح شيئا أخر لا صلة له بالتربية الوالدية ، ولذلك فإن ردع الاطفال عن السلوك الخاطئ يتطلب من الوالدين تعلما وفهما لمدلولات العقاب ومن ثم اساليبه ومستوياته.

ونحن اليوم نعاني من ارتباك شديد على المستوى الاسري في التعامل مع اطفالنا خاصة في ظل الفوضى التي تُبنى بها الاسر الجديدة والتخبط في العلاقات في أول سنة زواج!

فالأطفال صفحة بيضاء يؤثر فيها المسح مثلما تؤثر فيها الكتابة ، وهم مرآة للوالدين وللعالم المحيط بهم ،و تعكس هذه المرآة ردود الافعال مثلما تعكس الافعال نفسها. ولذلك فالعقاب فلسفة ومفهوم وآلية من اللازم ان يتعلمها الوالدان قبل الشروع في بناء الاسرة او على الاقل قبل الشروع في انجاب الطفل الأول، ومثلما يسال المهندس عن المشروع هل هو سكني ام تجاري فعلينا ان نسال المتزوجين حديثا ما الهدف من تكوين الأسرة وانجاب الاطفال؟ هل تهدف الى الاستثمار في أبنائك؟ وعلى ضوئه تُبني قيم كثيرة من ضمنها أساليب التحفيز والردع الأسري، وإذا كان من الاهداف العظيمة في الاسر الواعية هو الاستثمار في الابناء فإن مسألة العقاب والثواب تصبح لدى هذه الاسرة مشروعا يقوم عل العلم والدراية تستخدم فيه افضل الاساليب التي تضمن تحقيق هدفها الاستثماري ، ودعونا نتبنى هذا الهدف وهو شيء رائع ارجو ان يكون مطلبا لكل أسرة حيث تصبح الافعال الوالدية وردود افعالهم محكومة بالمصلحة الاسرية والخوف من ان يفشل استثمارها في ابنائها .

وما دمنا نتحدث عن مفهوم رائع في رؤية الاسرة لتربية ابنائها وهو : الاستثمار فيهم وفي انجازاتهم ، فإن مفهوم التحفيز والعقاب يتغير تبعا لذلك حيث يصبح هذا المفهوم مرتبطا بالإنجاز وإحسان العمل أكثر من ارتباطه بالمنع والتأديب ، وهنا يصبح الاب والام معنيان بالتصالح مع ابنائهم اي فهمهم وذلك بالتعرف على امكاناتهم وطموحاتهم ومحبوباتهم ومن ثم اختيار او ابتكار اساليب للتشجيع والتحفيز والمنع اكثر جدوى وأقل نسبة خطأ.

وهنا يطرح الآباء والأمهات سؤالا غير مسموع احيانا متى أعاقب؟ وعلى أي السلوكيات أعاقب؟ وهذا احساس رائع من الوالدين يعبر عن نضج وسياسة ، لان

اسباب العقاب تختلف من اسرة الى اخرى ومن طفل الى آخر فضلا عن اختلاف الظروف والمواقف. وبالرغم من وجود الكثير من الآباء والأمهات ذوي الطموحات العالية إلا ان هناك أمية تربوية واسعة تسيطر على مسار العلاقات داخل بعض الاسر في المجتمع. مما يعني ان هناك خللا يتمثل في نقل التربويات الجيدة عبر الوالدين الى الابناء، وخللا في استقبال الوالدين لرسائل الابناء العاطفية واحتياجاتهم الحياتية من جهة أخرى. وهذا الخلل لا يزول الا برفع هذه الامية التربوية، وهي مسؤولية مجتمع وقرار شجاع ننتظر ان يكون مشروعا وطنيا عاجلا تتصدى لها الدولة على أعلى مستوياتها بحيث يضمن المجتمع انتاج اسر فاضلة وقوية تربويا. لأن أول ما يتأثر بهذه الامية عند الوالدين هم الاطفال الذين يُمارس عليهم اساليب للعقاب قد تدمر جمال الطفولة وتخلق أخاديد في مستقبل حياتهم.

ان قائمة التحفيز والعقوبات طيف واسع متنوع فإذا كثرت خياراته عند الوالدين دل على الوعي التربوي، وكلما ضاقت الخيارات كان مؤشرا على الامية التربوية في قيادة الاسرة، ولذلك فإن العقوبات قد تصبح عند بعض الآباء والامهات لوحة جميلة يبدع الآباء ء في رسمها ويستمتع الابناء بالنظر اليها، وعند آخرين تتحول لائحة العقاب الى نفق مظلم يدخل فيه الآباء والامهات والابناء ولا يخرجون منه إلا بعاهة جسدية او نفسية مستديمة.

ولذا فإن الخطوة الاولى امام الوالدين هي العمل ما امكن على توسيع دائرة تلك الخيارات وترتيبها وفقا لأولويات الاستثمار في الأبناء .

وهناك قواعد تُبني على اساسها تلك الخيارات ومنها:

1- ان اساليب العقاب فن وعلم يُكتسب ويتعلمه الآباء والامهات من خلال القراءة والاستشارة وحضور الدورات وورش العمل التربوية. وليس ثمة مجال لأن يكون الاطفال حقلا لتجريب المختلِف والمتنوع من اساليب العقاب والردع، وبالتالي فإن من ضرورات التربية الوالدية أن يفكر الوالدان مليا قبل معالجة الخطأ عند ابنائهم فيستخدم المناسب من الاساليب عن دراية ووعي. فلا مجال هنا للخطأ .

2- إن العقاب مفهوم له تفسيرات كثيرة قطعا ليس من اهمها العقاب البدني بل إن العقاب البدني يأتي في آخرها بضوابطه القانونية والشرعية التي تخفى على الكثير فيستخدمونه في غير محله وبصورته المشوهة، وإلا فإن المربي الأعظم

محمد صلى الله عليه وسلم لم يستخدم العقاب البدني قط .

3- ان التشجيع والتحفيز على السلوك المرغوب يجب ان يسبق العقاب على السلوك غير المرغوب بمراحل، ولقد دلت التجربة على أن تشجيعنا لأطفالنا وتحفيزهم نحو السلوك الجيد يعطي نتائجا رائعة من حيث زرع وتعزيز الفضائل والسلوك الجميل ، والاستبعاد التلقائي للسلوك غير المرغوب فيه.

4- من حق الطفل ان يعرف المبرر الذي من اجله استحق العقاب ، وان نتعامل معه بكونه ذكيا مفكرا ومكتشفا بارعا، وادراك الآباء والامهات لهذا الامر عن اطفالهم يسهل مهمتهم التربوية ، فإذا قلت للطفل إني اشعر بالغضب منك فعليك أن تكمل السبب كأن تقول : لأن صوتك كان أعلى مما يجب وأنت تتحدث مع جدك .

5- إن للعقاب مستويات بحسب المرحلة العمرية للطفل والدافع للخطأ وظروف المكان والزمان. فإذا كان نوع العقاب مثلا هو المكث على كرسي التفكير فترة من الزمن فإن الطفل في عمر الخامسة يجلس خمس دقائق بينما طفل الثالثة يجلس ثلاث دقائق للتفكير في خطئه. وليس كل عقاب يصلح لكل طفل فالطفل العنيد غالبا لا ينفع معه العقاب القائم على الأوامر، افعل كذا او لا تفعل كذا، بينما الطفل الانطوائي يتطلب تعديل سلوكه مشاركة جماعية على رأسها الوالدان ، والطفل العدواني عليه ان يشارك في علاج الخطأ فمثلا اذا قام بسكب العصير يطلب منه مسحه .

6- ان لا يُحدث العقاب شرخا في العلاقات وهنا لابد من الفصل بين الطفل وسلوكه فالمزج بين شخصية الطفل و السلوك الذي قام به يعتبر خطأ يجب ان لا يقع فيه الآباء ، فهناك فرق بين ان تقول: أنت مخطي أو تقول: إن سلوكك كان خطأ، فاستخدام ضمير (أنت) يعني حكمك على الشخصية والكيان وما يحمله الطفل عن نفسه من تصور جميل ، بينما في الثانية أنت تبقي على كيانه وشخصه وتحكم على فعله ، ففي ازدراء النفوس الصغيرة جرح لها ، بينما ازدراء الافعال تقويم لها ، ولا شك اننا معشر الآباء والأمهات علينا ان ننقد الأداء ولا ننقد الأنا عند الطفل.

7- التغافل قدر الامكان عن الاخطاء الأولى، فكثير من سلوكيات ابنائنا اما أنها بغير قصد او دون علم او لأن الطفل لا يفرق كما يفرق الكبار بين الخيال

والواقع . وهنا تأتي فضيلة التسامح والتغافل عن أخطاء ابنائنا، والتسامح قاعدة مهمة في التربية الوالدية ، فإن أساس اخطاء الاطفال زوجين غير متسامحين.

8- ان الكثير من السلوكيات يبقى الزمن كفيلا بها وبإصلاحها ، فلا تستعجل على ابنك فقد كنت خطاءً ثم غدوت ذا حكمة ! وكذلك هم ! سوف تتكفل الحياة والمجتمع بصقل تجاربهم وتعديل سلوكياتهم . ، ولكن كن بالقرب منهم عاطفيا وجسديا و استثمر وقتك معهم .

9- الرحمة في مقابل الفضاضة ، (فبما رحمة لنت لهم) مقابل (ولو كنت فضا غليظ القلب ..)

كيف يمكن للوالدين ان يمارسا تعديل سلوك ابنائهم بصيغة تربوية بناءه؟ هنا نحن لا نسال عن كيف نعاقب على الخطأ ؟ بل كيف نعدل الخطأ.

إن هناك اساليب جيدة وواعية لمعالجة أخطاء الابناء وتعديل سلوكهم ، ويمكن الحديث عن حزمة من الافكار والممارسات التربوية الآمنة ومنها :

1) التربية بالحب

تزخر اللغة العربية بآلاف الكلمات الجميلة المعبرة عن الحب فحينما يصبح ويمسي ابناؤنا على معزوفة من كلمات الحب الصادرة من الاباء والامهات ، فنحن هنا نربي بالحب ، والتربية بالحب تختصر مسافات في التحفيز للسلوك الجميل ومنع السلوك الخاطئ ، فالطفل يحتاج الى الحب كحاجته للأكل والنوم ،ويسعى الى إرواء هذه الحاجة، والوالدان اقرب من يعين على ذلك ، فكلمة الحب ولمسة الحب ونظرة الحب ولقمة الحب ، هي أدوات الوالدين في التربية بالحب. فإذا حرم من الحب سماعا او ممارسة فإنه يتعرض للعقاب بالحب ، فكما نربي بالحب يمكن ايضا ان نعاقب بالحب!

2) التربية بالبديل (الإحلال)

إحلال السلوك الجيد مكان السلوك الخاطئ بصرف انتباه الطفل عن الفعل غير المرغوب فيقوم الوالدان او احدهما بمهمة رجل المطافئ اي بإطفاء الهالة او التركيز على السلوك الخاطئ ولفت انتباه وتركيز الطفل تجاه البديل وهو الفعل المرغوب منه ،

فمثلا عنما يرتكب الطفل الخطأ بالكتابة على جدار الغرفة ، فإذا قلت له لا ترسم على الجدار فانت تثبت الهالة والتركيز على الخطأ لكن عليك ان تقول له ارسم على الكراسة ثم تعال لنعلقها سويا على الجدار! هنا عليك أن تتأمل المكاسب الابوية المتعددة واكتشفها بنفسك!

3) التربية بإرساء القواعد

ارساء قواعد واضحة للضبط داخل المنزل يعرفها الجميع وبأسلوب بسيط وايجابي من خلال هذه القواعد يعرف الابناء والبنات السلوك المرغوب والسلوك غير المرغوب، بعض هذه القواعد يُقدم شفويا فإذا كانت من الاب تكون مهمة الأم تعزيز القاعدة والرقابة على التطبيق فعند صدور محاولة لتجاوز القاعدة تقول الام مثلا : انتبه لا يسمعك والدك ، واذا كانت من الام يقوم الاب بنفس المهمة وفي الغالب يتم تقسيم المهام فالأم تقدم القواعد للبنات والاب للأولاد ،وهناك قواعد مكتوبه تعلق في الاماكن التي يحدث فيه السلوك الخطأ في المطبخ غرف النوم دورات المياه .. الخ وبإرساء القواعد السلوكية تلك نرفع الجهل بها اولا ثم نرسخ العمل بها ثانيا .

4) التصحيح الزائد :

وهنا نلزم الابن او البنت بإصلاح ما افسده وزيادة ،والزيادة المعنية هي المقدور عليها وغير المجهدة ، بهدف تعليم الطفل الصواب والخطأ وكذلك تعويده على السلوك المرغوب فيه و يعد هذا الاسلوب أبسط أنواع تعديل السلوك تطبيقا ويعتبر اسلوبا تربويا جيدا بشرط أن لا يقترن بالعنف والزجر أو يصاحبه إهانة للطفل وجرح لشعوره بل نشعره بالحب والحنان، فتعديل السلوك غير المرغوب يتجه دائما الى السلوك نفسه وليس الى شخصية الطفل وكيانه كأن يدعى على الطفل بالموت او العمى! ، فيمكن للأم ان تطلب من صغيرها احضار ممسحة لتنشيف العصير وهذا تصحيح بسيط ، اما اذا طلبت الام تنظيف بقعة العصير وغسل كوب العصير فهذا تصحيح زائد .ا

5) المثلث العاطفي

من الطرق التربوية الفاعلة لمواجهة الاخطاء والتوتر داخل الاسرة هي طريقة

المثلث العاطفي، وتطبق هذه الطريقة على مستويين، الاول : عند حدوث السلوك غير المرغوب فيه من احد افراد الاسرة يقوم شخصان (ضلعان) بتركيز الاهتمام نحو المخطيء ليكملا معه المثلث من اجل اخماد التوتر الذي يعاني منه وعدم تركه وحيدا يستفرد به سلوكُه الخاطئ. الثاني: ان المثلث العاطفي مفيد لاستباق حدوث الاخطاء او السلوك غير المرغوب من اي فرد من افراد الاسرة ،وهنا يُنظر الى ان كل مشكلة داخل الاسرة يتواجد فيها ثلاث جهات (اشخاص) يمثلون مثلثا متساوي الاضلاع في الحالة الصحية المتوازنة ، فالابن المراهق مثلا يمثل احد الاضلع ، والاسرة الضلع الثاني ، اما الضلع الثالث فهم الاصحاب او الاقران ، فإذا اقترب الابن من ضلع الاصحاب وابتعد عن ضلع الاسرة بحيث يصبح المثلث قائم الزاوية أي أن المنزل اصبح مكانا للأكل والنوم فقط ! هنا يصبح لدينا مؤشر للقلق الوالدي بان هناك خطأ يحدث او انه على وشك الحدوث فل ننتبه!

6) العقاب البدني :

شُرع ضرب الطفل بعد 5400 أمر تدريبي! اي ثلاث سنوات من التدريب على السلوك الجيد وهو هنا الصلاة ، وهي الركن الثاني من اركان الاسلام وعظيم شأنها لا يخفى على أحد ، وهنا دلالة واضحة على ان إيقاع العقاب البدني ليس من الخيارات المطروحة امام المربي خاصة في امور العلاقات المعتادة داخل الاسرة ، وقد روى الترمذي وغيره عن أنس -رضي الله عنه- أنه **قَالَ " : خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ ، لِمَ فَعَلْتَ كَذَا ، وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا "**

إن ضرب الاطفال اعتداء ، وهو خطيئة اذا كان على الوجه او في الاماكن الحساسة للطفل ، يجدر بالاب والام العقلاء ان لا يكون خيارهم التربوي، خاصة في ظل توفر اساليب ناجحة لتعديل السلوك الخاطيء.

د . عبدالله بن حمد العباد

(نشر في جريدة الرياض بتصرف في 23/ 5/ 1434هـ)